زرياب *

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانسيه فى الآداب

رجل من رجال الفن ، خلق له وفطر عليه ، لعل فى سيرته الطريفة مثلا للموهبة الطبيعية ، ترفع من شأن صاحبها فتبلغ به الذروة وتجعله شيئاً مذكورا ، يتحكم فى حياة أمة بأسرها ، فيبدل فيها ويغير منها ، ويؤثر وحده فى طبائع أهلها وما ورثوه من تقاليد ، ويخلق فيها من العادات والفعال ما لم يكن بها وما ليس يخطر لأهلها على بال .

هو أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى الخليفة العباسى كان أسود اللون ، حلو الشمائل ، وكان شاعراً مطبوعا فصيح اللسان ، لقبه قومه بزرياب تشبيهاً له بطائر عندهم أسود اللون ، عذب الصوت ، حلو التغريد ، وكان زرياب رقيق الحس ، دقيق الشعور ، له حنجرة لم تخلق لغير الغناء ، وأنامل كأنما أعدت للعود ، ونفس

* نشرنا عن زرياب فصلا ضافيا ممتعا للأستاذ العبادى فى ص ٨ من العدد (٧) من الرسالة

ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

وقول الآخر :

من الناس من يرضى بعيش رعيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبى ماله ... مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وقول غيره :

ياشباب الغد وابناى الفدا ... لكمو ، أكرم وأنعم بالفداء
لاتقولوا حطنا الدهر ، فما ... هو إلا من خيال الشعراء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

وانى مع شوقى يوم قال واصفاً شباب مصر :

شباب قُنِّع لاخير فيهم ... وبورك فى الشباب الطامحينا

ولكنه من الواجب ألا نلقى العبء كله على الشباب ، بل هو ملقى على التربية والآداب ، فالأدب الشعبى الدارج ملىء بالقناعة والأدب المدرسى مثله .

« يتبع »

أحمد أحمد بدوى

تميل الى الفن ، وروح يهفو الى الطرب ، تتلمذ لاسحق بن ابراهيم الموصلى ببغداد يدرس عليه أصول الصناعة ويتعلم منه دقائق الفن ، وكان اسحق يعلمه الأغانى ويلقنه الألحان ، حتى اذا خلا زرياب بنفسه خلق من فن اسحق فناً جديدا ، وهداه صفاء نفسه وسمو روحه الى كل معجب مطرب ، واسحق لا يعلم من أمر تلميذه شيئاً ولا يدرى أنه أخذ منه فتفوق عليه .

وذهب اسحق الى مجلس الرشيد يبعث فيه السحر كعادته وينطق فيه العود بالغناء الشجى والنغم العذب ، والخليفة مصغ اليه معجب به ، تأخذه حلاوة التوقيع وتروقه عذوبة الألحان ، حتى اذا فرغ اسحق من غنائه التفت اليه الرشيد يثنى عليه ويمدحه ويحادثه فى صناعة الغناء ، فما هو الا أن يتشعب بهما الحديث حتى يقترح عليه الرشيد أن يسمعه مغنياً غريباً يجيد فنه ويحسن صنعته ممن لم يشتهروا عنده ولم تبلغ مكانتهم اليه ، فيذكر له اسحق تلميذاً له قد علمه وأعجب به يتوسم فيه الاجادة وعلو الكعب فى صناعة الغناء .

مثل زرياب أمام الخليفة فسأله عن معرفته بالغناء قال « نعم ! أحسن منه مايحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لايحسنونه ... فان أذنت غنيتك مالم تسمعه أذن قبلك » وأخذ يصف له عوده وما ركب عليه من أوتار لها فى الترنم والصفاء والعذوبة ما ليس لغيرها وما أن يأذن له الرشيد حتى يوحى الى عوده فيغنى معه :

يا أيها الملك الميمون طائره ... هرون راح اليك الناس وابتكروا

ويظل يغنى والرشيد يسمع حتى يتم أبياته فى نغم لم يسمع الخليفة مثله ، ولحن لم تردد نظيره جنبات القصر ، ويطير الرشيد طرباً ويسمع من الانغام جديداً لم يُسمعه اسحق مثله فيعاتب اسحق كيف ترك الرجل من قبل فلم يعلمه به ، ثم يأمره أن يأخذه لديه فيغنى به حتى يفرغ هو له .

أما اسحق فأسرها لتلميذه ، ولم يكد يخلو به حتى عنفه واشتد فى تعنيفه وصارحه بما هاج به من الحسد له والغيظ منه ، وخيره بين اثنتين لا ثالث لهما ، فاما أن يغادر تلك البلاد فلا يراه بعد ذلك أبداً ويعطيه على ذلك أغلظ الايمان وأوثق العهود وله عليه مايريد من مال أو عطاء ، وإما أن يقيم على كره منه وشركة له فى الصناعة وعند ذلك لن يأمن غدره ولن يغنيه الحذر شيئا ، وأما زرياب

فلم يكد يرى أستاذه ينفس عليه رضاء الخليفة ، ولم يكد يسمع منه هذا الوعيد المخيف حتى قام من فوره ينفى بلاداً غير هذه وناساً غير هؤلاء ، وأما الرشيد فانه لم يكد يفرغ من بعض شؤونه حتى سأل عن زرياب أستاذه فزعم له اسحق أنه رجل غر أحمق ماهو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين حتى رحل غضبان ينفى على الأيام أن أوقعته فيمن لايقدرون النبوغ ولا يكرمون النابغين ولا يعرفون الغث من السمين فسكن الرشيد الى قول اسحق .

سار زرياب اذن من المشرق وكان المغرب قبلته فولى نحوها وجهه ، وراح فى الاندلس يلتمس مالم يظفر به فى العراق من بعد الصيت ورفعة الشأن ، وكتب الى عبد الرحمن بن الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة ويسأله الاذن له فى الوصول اليه ، وما هو الا أن يقرأ عبد الرحمن الكتاب حتى يرحب بصاحبه ويوصى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة ، وفى قرطبة يبدع زرياب ويملك على الأمير نفسه فيطرح كل غناء سواه ويقدمه على جميع المغنين ويقطعه الأرض ويمنحه المال ويبلغ اعجابه به حداً لامثيل له ، فيفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده ، وزرياب يذهب فى الغناء كل مذهب ويضرب فى التجديد بسهم وافر : هذه أعواد القوم لها أوتار أربعة ، فليزد هو عليها وتراً خامساً يستهوى النفس بما يحدثه من النغم ، وها هى أعواد المغنين كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فليكن عوده خفيفاً مرهفاً دقيق الصنع ، وهذا مضراب العود قد استعمله الناس من خشب فهو ثقيل فى اليد قاسٍ على الأوتار ما يلازمها قليلا حتى يقطعها أو يفسدها ، فليكن مضراب عوده من قوادم النسر فهو خفيف على الأنامل رفيق بالأوتار وان طالت ملازمته لها ، وهاهى ألحان القوم معدودة وأغنياتهم معروفة فليجدد هو فى اللحن ، وليأت من النغم بكل طريف وليُسمع القوم من أغانيه وألحانه ما يعد بالآلاف .

وكان زرياب أيضاً قد جمع إلى براعة الفن وحلاوة الترجيع سلامة الذوق وترتيب الذهن فهو سمير اذا جالس الأمير أو أشراف الأمير ، وهو طيب الحديث إذا تحدث ، ماهر فى خدمة الملوك ، يجيد استقبال الضيوف والزائرين ، متأنق فى ملبسه يعنى بزينة نفسه حتى صار مثالاً فى الأناقة يحتذى ، أخذ عنه أهل الأندلس وحاكوه ، فلم يعودوا إلى إرسال الشعر مفروقا وسط الجبين مسدلا إلى الخدين والحاجبين وانما فعلوا كما يفعل زرياب ونساء زرياب ، فحذفوا شعورهم وقصروها دون الجباه وسووها مع الحواجب ودوروها الى الآذان وأسدلوها إلى الخدود ولم يعودوا الى ملاحف الكتان يلتحفون بها ، وانما فعلوا كما يفعل زرياب فآثروا على الكتان أنطاع الأديم الناعمة ، ولم يبق الناس على ماهم عليه من خلط بين ملابس الشتاء وملابس الصيف ، وجهل بما يلائم الربيع وما يناسب الخريف ، وانما علمهم زرياب أن لكل زمان ثيابا ، فللربيع اللون الزاهى ، وللخريف الخفيف اللون ، وللشتاء الثياب الكثيفة ذات الحشو والفراء ، وللصيف البياض من الثياب ، وكذلك عرف الناس مذ جاءهم زرياب صنوفا من الطعام لم تكن لهم بها دراية ولا بطعمها علم واستعمل القوم فى الأندلس من العطور مالم يألفوه من قبل ، وفضلوا آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة لأن زريابا كان يؤثر الزجاج ويتناول شرابه فيه

وكان زرياب ايضاً قد علم بناته وجواريه أحسن الأغانى وأدبهن بأدبه فبرعن فى الغناء وأتقنّ الصناعة ، فكانت حمدونة ابنته عند أهل بيتها فى الصدر ، وكانت أختها علية كذلك ، وتزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، أما جاريته مصابيح فقد جمعت إلى جمال الصوت جمال النبل كتب صاحب العقد الفريد الى مولاها وقد حجبها عن الناس واختص بها مجلسه يقول له :

يامن يضن بصوت الطـــائر الغرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهـل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فأدخله مولاها الى مجلسه وأذن له فى سماعها

ووضع زرياب المراسم لافتتاح الغناء فما يفتتح غناء فى الأندلس الا وأوله النشيد وآخره الاهزاج فأكسب زرياب المحافل روعة وأهدى المجالس باقات من الفن زاهيات ، وكان وحده فنا انتقل الى الأندلس ، وحضارة عمت قرطبة ؟

محمد قدرى لطفى